

التلقي النقدي لتيمة العنف في الرواية الجزائرية

Critical reception of the theme of violence in the Algerian novel

مداني علي

جامعة ابن خلدون – تيارت –

كلية الآداب واللغات، مخبر الخطاب الحجاجي

madaniali2010@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2021/03/15 تاريخ القبول: 2022/02./13 تاريخ النشر: 2022/06/09

ملخص:

كثيرا ما تناول الدارسون مفهوم الحدث بمفهوم المحور العام أو القصة التي تعالجها الرواية، فإذا كان الحدث في الرواية الكلاسيكية يأخذ سمته التاريخية والواقعية، ولئن كان يتميز أيضا بالتسلسل المنطقي لطبيعة الأشياء، وتتابع الأحداث وتعاقبها، فإنه في الرواية المعاصرة من صنع القارئ، لأنه هو الذي يتجشم عناء إعادة ترتيب الأحداث المفككة البناء والترابط، وقد أجمع معظم النقاد أن الأحداث تستسقى، من الخبرات الإنسانية والتجارب الحياتية المختلفة، والمآسي التي تمر بها الأمم والمجتمعات.

ونتيجة لما تزخر به الأمة الجزائرية من وقائع؛ وما حفلت به أوضاعها من أحداث متنوعة وتجارب متعددة ومحن مرت بها، فإن العنف/الموت والوطن يشكّان ثنائية متميزة، ويعدان من أهم المحاور التي تمثل أساسيات تشكيل الخطاب الروائي عند الكتاب الجزائريين، وإن كانت هناك محاور أخرى، تشكّل الحدث في الرواية الجزائرية المعاصرة، من حب ورمز وأسطورة، فكيف قرأ النقد الجزائري هذه الأحداث؟

كلمات دالة: الحدث، الرواية الجزائرية المعاصرة، العنف، النقد الجزائري.

Abstract

Scholars often dealt with the concept of the event in terms of the general theme or the story that the novel deals with. So, if the event in the classic novel takes its historical and realistic attributes, while it is also distinguished by the logical serialization of the nature of things, the succession and sequence of events, in the contemporary novel, it is made by the reader, because he is the one who bears the trouble of rearranging the disassembled and disconnected events. In fact, most critics have unanimously agreed that events are derived from human experiences, different life experiments, and the tragedies experienced/undergone by nations and societies. As a result of the Algerian nation's richness and the various events, experiences, and tribulations/ordeals it has gone through, violence / death and the homeland constitute a distinct duality, and are considered among the most important axes that represent the basics of shaping the Algerian writers' narrative discourse. And if there are other axes, it is the event, in the contemporary Algerian novel, of love, symbol and legend.

Keywords: The violent event, contemporary Algerian novel, Algerian criticism

تمهيد:

نحاول في هذه الدراسة إعادة قراءة تيمة العنف في الرواية الجزائرية المعاصرة من خلال الخطاب النقدي الذي واكب رحلة هذه التيمة، ومن مرجعياته المختلفة، التي تثير مجموعة من التساؤلات المرتبطة ببنية هذه الكتابة الإبداعية، مع اعتقادنا أن النقد الروائي الجزائري في قراءاته المتعددة، حاول الغوص في أعماق التجربة الروائية المعاصرة وخلق خطابا نقديا، متكئا على الخطاب الروائي، وعليه نسعى إلى قراءة الخطاب النقدي بوصفه لغة/خطابا ثانيا.

تطرح الرواية الجزائرية المعاصرة جملة من الأسئلة المتشابكة، والتي لا تزال تطرح لحد الساعة، وإن حاولت كثير من البحوث والدراسات الإجابة عنها، من رؤية تفصيلية أو تجزئية؛ بمعنى أنها درست كل مشكل/عنصر من مشكلاتها البنائية على حدة، وعملت على تفكيك النص الروائي إلى عناصر/مشكلات بنائية منفصلة عن بعضها البعض، وأن لكل عنصر أثرا في بقية العناصر.

على أن الحدث في الرواية الكلاسيكية يأخذ سمته الفنية من التاريخية والواقعية، كما يتميز بناؤه بالتشكيل الهرمي (بداية، وسط/عقدة ونهاية/حل) أو ما نسميه بالتسلسل المنطقي

لطبيعة الأشياء ومنطقها، وتتابع الأحداث وانتظامها، أما في الرواية المعاصرة فإنه من صنع القارئ/المتلقي، لأنه هو الذي يعيد ترتيب الأحداث المفككة البناء، «النص المكتوب يجبر القارئ على المشاركة في الكتابة والتورط فيها، لا أن يقف موقف المتفرج منها، يجبره على أن يضطلع بالوظيفة الإبداعية التي بقيت حكراً على سواه، ولا يبقى في دائرة الاستهلاك» (السيد إبراهيم، 1998، 213)، حيث غدا القارئ يتفاعل مع النص الروائي الجديد، ويعيد بناءه وترتيب أحداثه، بعد الكشف عن الخيط الرفيع الذي يجمعها.

ومن خلال المسح والاستقراء الذي أجري على عدد غير قليل من الروايات الجزائرية المعاصرة، تبين أن كثيراً منها ينتظم وفق خط تسلسل متونها في الزمان، مع إمكانية استثناء بعض التجارب الروائية الجديدة من هذا النمط.

يقوم هذا البحث على الدراسة النصية لنماذج نقدية لعدد من الدارسين الجزائريين بالوصف والتأويل، في محاولة للوقوف على قراءات بعض النقاد وطرائق تشريهم لأساليب الكتاب الفنية في الكشف عن صورة "العنف الديني" في النص الروائي الجزائري المعاصر؛ لنستكشف ونكشف كيفية تلقي القراء وتأويلهم لهذه الظاهرة في هذا التجريب؟

تنهض الدراسة على خطة تتمثل في مبحثين، يلقي المبحث الأول الضوء على أهمية الحدث الروائي، وهندسة تشكيل فجائعيته، في حين يقوم المبحث الثاني على رصد فعل التلقي/القراءة لتيمة العنف في التجريب الروائي وتأويلها.

1- الحدث العنيف:

1-1- أهمية الحدث:

يبدو، أن الرواية الجزائرية المعاصرة سعت من غير تردد أن تصطنع عالمها التقني، لتتجاوز الأنماط الكلاسيكية الثابتة في كتابة الرواية بغية مسايرة المتغيرات والتحويلات الدائمة في علاقة الإنسان المعاصر بما يحيط به من كل جانب، ذلك أنها حاولت أن تتمثل الوقائع؛ إذ أن الحدث يمثل "العصب الذي يقيم عالم الرواية والشریان الذي يزودها بالتدفقات الحياتية" (محمد بشير بويجرة، د ت، 121)، وهو المبلور لعملية الاحتفاظ بالأحداث التي تقع داخل الشخصية، أو ما يصدر عنها من سلوكات ومواقف، ويمكن اعتبار نصوص الرواية الجزائرية الجديدة، نصوصاً وظيفية وليست مقصداً خطابياً.

وقد لا يتمكن القارئ البسيط بقراءته السطحية من الوقوف على مضامين الرواية الجديدة إلا بعد تشريح النص وإعمال المناهج النقدية والتأمل الدقيق، وبذل الجهد التأويلي، لكشف الرؤيا الإبداعية.

1-2- فجائية تشكيل الحدث العنيف:

مثل العقد الأخير من القرن الماضي والسنوات الأولى من الألفية الثالثة، مرحلة متميزة في حياة الجزائر والجزائريين وحملت النصوص الروائية لهذه المرحلة الكثير من الخصوصيات التي ارتبطت بها لأن بدايتها تواشجت مع أحداث سياسية بارزة تركت بصماتها جلية على الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وحتى الذاتية (الفردية)، وقد أشار شرف الدين مجدولين "أن الرواية الجزائرية لا تكاد تفارق عنفاً موضوعياً حتى تعانق عنفاً بديلاً له من عنف المقاومة إلى عنف الثورة إلى النظام الحديدي، إلى عنف الحركات الأصولية ولا يمكن لهذا المعطى إلا أن يكشف لنا عن تحليلات موازية للعنف الروائي" (عبد الحق ميفرائي، 2008) فالكل يمارس القمع والعنف، وإن اختلفت الآليات والوسائل والأساليب.

عانى الإنسان الجزائري الكثير من ويلات الاستعمار الفرنسي، وما تمخض عنه من مأس ومحن، وما كاد ينبلج فجر الحرية حتى سلط عليه حكامه أقسى أنواع العذابات، وحكم بالحديد والنار، وحرّم حرية الرأي والتعبير، فغاضه ذلك ولم يجد سبيلاً إلى الديمقراطية غير "الوعي بالطريق الذي يقود إلى افتتاح السلطة ليعم الخير، فالخير يستدعي الثورة وبالثورة يسود الخير" (مخلوف عامر، 2000، 74)، ومع قناعتنا الراسخة وبقيننا المطلق أن العنف لا يلد إلا عنفاً مضاداً أقوى وأعتى، ولربما أكثر تدميراً وتخريباً، وهو ما حدث في سنوات الدم والنار التي مرت بها الجزائر الحبيبة، فصمدت في أوجه هؤلاء وأولئك.

إن ظاهرة العنف لا تخص الجزائر وحدها، ولا الوطن العربي وحده، بل "تشمل العالم ومجتمعاته ويمارسه بعض الناس على بعضهم الآخر بأساليب مختلفة" (جمانة طه، 2004، 300)، ولعل ظاهرة الإرهاب -هي إحدى ممارسات "العنف العاري" حسب تعبير جابر عصفور- الذي أدخل الجزائر حقبة من حقب التاريخ، لم تمر بها أبداً، فأصبحت الجزائر رمزاً للموت بعدما كانت رمزاً للحياة والخلود، وفتحت نافذة من جدار الخراب والدمار والانهيار.

إن التغيرات والتحولات الداخلية في هذه الفترة قد زعزعت الكثير من القناعات والثوابت، وقوضت الكثير من القيم والمبادئ والأخلاقيات التي ما كان المجتمع، كمجتمعنا أن يتخلى عنها ببساطة، وينسلخ عنها بيسر وسهولة، وأسهمت في تشكيل ما يسمى "نكوصاً" وتراجعاً وردةً في العديد من أنماط تفكيره وأساليب حياته فقلبت الموازين وتغيرت المفاهيم، وتدرجت القيم الإنسانية السامية خطوات إلى الخلف.

2- تيمة العنف في الرواية:

التلقي والتأويل:

تناول الكثير من الباحثين ظاهرة العنف -بكل أنواعه- بالدراسة والتحليل في النصوص الروائية الجزائرية المعاصرة، ورصدوا أسبابها تحليلًا، ونتائجها تحليلًا وما يلاحظ على كثير مما كتب حول هذا الفن أنه أولى العناية والاهتمام لبعض التجارب والروايات وغيب كثيرًا من التجارب والأعمال الروائية الأخرى، بمعنى أن هناك انتقائية في الدراسة والمقاربة ولا ندري إن كان الأمر مقصوداً أم هو محض صدفة؟

عالج مخلوف عامر ظاهرة العنف -والإرهاب بخاصة- من خلال العديد من الأعمال الروائية الجزائرية المعاصرة -ك(المراسيم والجنائز، تيميمون، الشمعة والدهاليز، وسيدة المقام)- التي تناولت أحداث العنف والإرهاب، بعد أن تحولت الجزائر إلى ذبيحة أمام مرأى ومسمع العالم كله، والسفاكون لا يرحمون الجزائريين (شعباً) ولا الجزائر (أرضاً)، وهي لا تدري كيف تلحق جراحها النازفة، ولا تدري من يقتلها "فهل تقوم بعملية الذبح سكين واحدة أم سكاكين تنتمي إلى جهات متعددة...؟" (عبد الرحمان عمار، 2003، 61).

معلوم أن الإرهاب ليس له دين، ولا يحتويه وطن، غير أن أصابع الاتهام تشير إلى الإسلاميين، وها قد أُشير إليهم بالبنان، بأنهم وراء شلال الدم الغزير وصور النار والدخان والدمار، يقول مخلوف عامر: "الإرهاب الأعمى يضرب بلا تمييز أحياناً، إنه يريد أن يسجل حضوره مهما تكون الضحية المستهدفة، ويزداد الموت بشاعة" (مخلوف عامر، 2000، 94)، وإذا ما تأملنا في الأسباب الموضوعية والفنية التي أسهمت في تشكيل هاجس (الموت) لدى الراوي/البطل، في رواية "تيميمون" لوجدناها ناتجة عن الواقع الدموي الراهن والوضعية اللاأمنية التي يعيشها الوطن، والكاتب بوصفه مثقفاً فهو مستهدف بالاغتيال والموت أيضاً.

ويواصل مخلوف عامر دراسته لرواية "تيميمون" وإصراره على اتهام الجماعات الإسلامية باقتتراف أبشع المجازر -والتي هي بعيدة كل البعد عن روح الإسلام وتعاليمه الخفيفة السمحة- وبأن الكاتب رشيد بوجدره "لم يعمد إلى توظيف الظاهرة الإرهابية على سبيل المؤضة، أو لمجرد مواكبة الأحداث، بل الأصح أن الإرهاب يحضر في الأذهان شتاً أم أبيضاً، وتالياً؛ كان لابد أن يترك بصماته في الكتابة" (مخلوف عامر، 2000، 96)، ويسجل الباحث نفسه موقفه من الإرهاب والجماعات الإسلامية وهو بصدد دراسته لهذه الرواية، فيتجلى لنا مقابل التطرف الديني التطرف المعاكس في النقد والفكر والسلوك.

إن فضولنا يزداد شغفاً لمعرفة المتطرف/القاتل الحقيقي، عندما يحاول الطاهر وطار أن يكشف بعض الحقيقة وقد عانى جزءاً منها، في روايته "الشمعة والدهاليز" ويبدو أن "العالم الذي يبينه هو عالم دموي، عالم الإرهاب والعنف والقمع والتمرد، إنما أيضاً عالم البحث عن معرفة اليقين مغامرة النفاذ إلى وعي للذات وعلاقاتها ومجتمعها وعصرها" (مخلوف عامر، 1999، 99) ومعرفة الأطراف المتصارعة، والجماعات المتناحرة، والعناصر التي تغتال المثقف والمرأة، والطفل، وحتى الجنين، والتي أخرجت كل لغة ولسان، يقول مخلوف عامر: "نهاية الرواية لا ترد العملية الإرهابية إلى جهة محددة ولا تردّها -خاصة- إلى الحركة الأصولية كما هو سائد، بل إن إطفاء شمعة المثقف الوطني الرمز يعود إلى عدة أطراف (...) ظاهرها اختلاف وباطنها اتفاق" (مخلوف عامر، 1999، 101) ولذلك اختار الشاعر/البطل الكتابة كفعل وعي وفعل حياة، واعتباره وسيلة دفاعية، بل هي سلاح هجومه الذي يحمل صيغة مقاوماته ومجاهماته ونظراته.

وفي ظل تأزم العلاقات الاجتماعية، سادت الظنون والشكوك، وخيمت حالة من القلق؛ وأفصح الأحاديث عن فجائعتها التي تجلت كثيراً حبراً وكتابةً على ورق الروائيين، فنقلت لنا صوراً مفعجة تقشعر لها الأبدان، وتشيب لها الولدان وما صنعه المتطرفون/القتلة بالناس وكيف حول التطرف هؤلاء القتلة لأشخاص يحملون صفات الوحوش، فقاموا بقطع الرؤوس وبقر بطون النساء الحوامل وعمليات التفجير؛ إذ كل المظاهر تشير إلى الموت.

إنه صراع الموت والحياة ومن "الطبيعي جداً في هذا المكان غير الآمن من العالم أن يفكر الإنسان غالباً في الموت أكثر من تفكيره في الحياة" (أحمد محمد عبد الخالق، 1987، 5)، لقد كان الموت/القتل السمة البارزة لهذه المرحلة العصبية.

كما صور لنا مخلوف عامر في قراءته لرواية "المراسيم والجنائز" محنة هذه الأمة عامة والمتقف بخاصة، وعدّد صور العنف والإرهاب، ممثلةً في عنف الخطاب الديني، والمضايقات الدائمة، وأعمال العنف الفظيعة؛ إذ لم يجد المتقف أمام حصار حمام الدم والعبرات المسكوبة من سبيل غير الكتابة ملجأً ومنجى و"لكن الكتابة أيضاً ما عساها تنفع أمام المجازر الرهيبة (...)" هذا حال المتقف المهموم الذي كلما انحالت عليه الأسئلة المصرية كلما ازداد تأزماً، هل ينتحر؟ هل ينتظر الموت؟ وهل الحل في الحرب؟" (مخلوف عامر، 2000، 98)، هذه إذن، حال المتقف الذي عجز عن الصمود والمواجهة، وانفصل عن الواقع المأساوي، وانسحب من المعركة.

ونختتم بـ"سيدة المقام" مقاربات مخلوف عامر لحدث العنف/الإرهاب - كما يحلو له تسميته- الذي يبدأ فكرة تربي وتكبر، ثم تتحول إلى تعصب فكري وتطرف ديني -كحراس النوايا- لكنها [نعني: سيدة المقام] في المقابل تكشف عن متطرف آخر -شخصية "مريم"، وقد تمثل تطرفها في خروجها عن قيم المجتمع، وفي فكرها وسلوكها ونمط لباسها الذي تستنفر به سكان حيها- كما يمكن أن نسجل محاولة الراوي -أو الكاتب- نقل صورة منفرة للجماعة الدينية هي بمثابة أحكام صادرة على ذات غاضبة -ولا نقل حاكمة- ورأي يصدر عن إيديولوجيا رافضة للآخرين، ولعل سبب ذلك يعود إلى الازدواجية في المواقف التي "تنبع من ازدواجية الثقافة، ومن ازدواجية الأحوال الاجتماعية التي نحيها في مظهرها الغربي واستخدام الوسائل الغربية (...)" وفي أفكارنا وتراثنا" (جمانة طه، 2004، 16)، وبذلك تكون رواية "سيدة المقام" قد وقعت فيما حذرت من الوقوع فيه.

يبين مخلوف عامر أن "سيدة المقام" لا تقف عند الأحداث البشعة وتصورها، وما أكثر حضورها، بقدر ما تقف على "الجوهر الذي يحرك الآلة الإرهابية" فيقول: "الإرهاب في "سيدة المقام" ليس حدثاً عابراً، ولا مجرد خبر يقرأ أو يسمع بل إنه أحد مكونات المدينة/الرواية" (مخلوف عامر، 2000، 103)، ولكن الرواية أيضاً ترسم الخط المؤدي إلى ذلك الحدث الكارثي، وتكون السيرة الغرامية -علاقة العشق بين مريم/الراوي التي تنتهي إلى قتل مريم أو انتحار الراوي- التي يتابع النص تفاصيلها ومحاولة الإمام بها واستيعابها.

تمكنت الرواية المعاصرة في الجزائر من نقل بشاعة ما حدث، من محن وإحن بحاراتها ومأساويتها؛ إذ "إن ما حدث جزء من جرائم عديدة ارتكبت بحق شعب آمن بريء، ولعل

فظاعته وبشاعته قد فاقت كل الأوصاف" (أحمد جاسم الحسين، 287، 2001)، غير أنه يلاحظ مما سبق، أن مخلوف عامر قد حاول إقصاء الآخر وعمل على نفيه بقوله "فمن الديمقراطيين من يرفعون شعار القطيعة الجذرية مع الأصولية (...). ولكنهم اندمجوا في المسار الانتخابي وقبلوا -في الواقع- بتقاسم السلطة مع الأصوليين، فهم بهذا الموقف -شاءوا أم أبوا- قد ساهموا في إعطاء الشرعية لإسلام السياسي وزكوا عملياً إمكانية أن يصبح الأصوليون "ديمقراطيين" يمارسون التناوب على السلطة عن قناعة وبتحضر" (مخلوف عامر، 106، 2000)، وهكذا يبدو لنا أن هذه القراءة تميل أكثر نحو النقد الإيديولوجي.

وهو بهذا يبين عن موقفه تجاه الرأي المخالف، ونستدل فيما ذهبنا إليه بقول ميكال دوفرين "ومن دون شك فالدلالة تأتي من الكلمات التي يتلفظ بها" (ميكال دوفرين، 2008، 49)، ومما سبق؛ يبدو غياب علمية النقد، والاعتماد على الطرح الأيديولوجي والمعرفة الفلسفية، وربما؛ أكون جانبت الصواب وعلمية النقد في هذه المسألة، لتبقى في الأخير كل النقود والدراسات مجالا رحبا للتأويلات.

عالجت سامية داودي قضية الفتنة/الإرهاب من خلال مقارنتها لروايات إبراهيم سعدي، ورأت أن هذا الروائي لا يستخدم مصطلح "العنف والإرهاب"؛ بل كثيرا ما يوظف كلمة "الفتنة" حيناً، و"الحرب الأهلية" حيناً آخر، خاصة في رواياته الثلاث "بحثنا عن آمال الغبريني" و"بوح الرجل القادم من الظلام" و"صمت الفراغ" (سامية داودي، 164)، وترى أن مسألة الإرهاب لم تكن لها علاقة بما يسمى "المؤامرة" الخارجية؛ بل إن مكنم العلة موجود في الداخل، أي في السياسة الفاشلة دون أن يعني ذلك إهمال الأطراف الخارجية التي عملت على زعزعة الاستقرار في الجزائر، وبث الرعب في أوساط الطبقات الشعبية.

كما حاولت الباحثة نفسها صياغة مفهوم للإرهاب، وقالت بأنه: "الأعمال الشنيعة التي من طبيعتها أن تثير لدى الإنسان الإحساس بالخوف، أو هو استعمال وسائل لإثارة الرعب بقصد تحقيق أهداف معينة (...). والإرهاب عموماً هو عمل بربري، واغتصاب لكرامة الإنسان تقوم به جماعات معارضة هدفها تقويض نظام الحكم" (سامية داودي، 166)، وتتساءل؛ بعد ذلك، عمن يقف وراء هذا الدمار.

وغير بعيد عن هذا الإطار، تناولت نبيلة بلعدي مفهوم الإرهاب أو العنف موظفة آراء ومفاهيم بعض الدارسين، لتصوغه في النهاية بقولها، إن "العنف مرتبط بالأعمال الوحشية التي قامت بها الجماعات الإرهابية المتطرفة ضد الشعب عامة باسم الدين الإسلامي، وارتبطت أعمالهم بالعنف الجسدي والنفسي واللغوي، والقهر الاجتماعي أيضا" (نبيلة بلعدي، تحليلات مظاهر العنف في الرواية الجزائرية المعاصرة، 90)، فالعلاقة بينة بين العنف والجماعات المتطرفة، وإن اختلفت مفاهيم العنف وتعددت أشكاله؛ فإن جميعها يماس في استعمال القوة والوسائل العنيفة بكل صورها لتحقيق المبتغى؛ في نهاية المطاف.

وترى سامية داودي، بعد قراءتها لنصوص إبراهيم سعدي الروائية المذكورة آنفا، أن ثمة جملة من الأحداث والأسباب المتعلقة كانت وراء انتشار الرعب والخوف؛ وإشاعة الفوضى والعنف الإرهابي، ولعل أهم حدث/سبب يتمثل في إيقاف المسار الانتخابي، الذي كان بمثابة الشرارة التي أشعلت نار "الحرب الأهلية" في الجزائر، فلم تبق على أخضر ولا يابس.

ويبدو، بعد قراءتنا لأطروحة سامية داودي؛ أنها حاولت التملص من مواجهة شخصيات تيار العنف/الإرهاب وتعريتهم، ووقفت موقف الحياد -كما فعل الروائي- تجاه هذه القضية لتشابك نسيجها وأسبابها، مكتفية بإيراد مقاطع سردية من الروايتين المذكورتين، لتختفي وراء حوار الشخصيات دون الإفصاح بوضوح عن نظرتها حيال ذلك الواقع المثخن بالجراح والدماء، والتناقضات والغموض في الآن ذاته.

وتسجل الباحثة في نهاية دراستها لموضوعة العنف الدموي تصدي الرواية العربية لهذه الظاهرة الدخيلة على مجتمعاتنا، وترسم في آن الواقع النفسي والاجتماعي والسياسي للإنسان الجزائري (سامية داودي، 173) في كنف هذه الأوضاع والظروف، وضياعه وغربته في متاهات الحياة المصبوغة بلون الدماء.

أما "صبرينة طيب" فتتناول في محور السياسة؛ مسألة الإرهاب في السرد النسوي الجزائري المعاصر، وتعرض المرأة للقمع والعنف الإرهابي من خلال قراءتها لرواية (وطن من زجاج) للروائية "باسمينة صالح" (صبرينة طيب، آليات السرد في الرواية النسوية الجزائرية، 99)، والتي رسمت بكل دقة الحالة النفسية للذات الإنسانية وما تعانیه من آلام وأحزان بسبب هذا الطاعون الذي أصاب الجزائر.

وتكشف الدراسة أن العنف هو امتداد طبيعي للاستعمار ولما آلت إليه أوضاع البلاد والعباد بعد طرده من الجزائر، وأن صوت الرصاص صار طاعيا على كل الأصوات؛ ومشاهد الدم والموت باتت المعبرة عن انكسار الوطن والإنسان، وتشير بأصابع الاتهام إلى الجماعات الإرهابية وتدين الدولة التي لا تحمي شعبها (صبرينة طيب، آليات السرد في الرواية النسوية الجزائرية، 99-100)، لتختصر ذاكرة الوطن الجريح واستحالة العيش فيه.

وفي مقاربتها لرواية (تاء الخجل) للروائية "فضيلة الفاروق"، تنتهي إلى تحول هذا الوطن إلى مقبرة تجمع أشلاء الأحياء والأموات في الآن ذاته، بسبب جرائم الجماعات الدينية المتطرفة (صبرينة طيب، آليات السرد في الرواية النسوية الجزائرية، 101) التي سلطت سيفها على رقاب النساء خاصة، فدفعت ببعضهن إلى هجرة الوطن.

يبدو، أن العنف الذي طال المرأة الجزائرية كان أشد وقعا على نفسياتها، فمن عنف وقيد الأسرة والبيت؛ إلى عنف الشارع ومعاناته؛ وتهديد الجماعات المسلحة/الإرهابية التي انتهكت عرضها واغتصبت حقها في الحياة، وضغطت السلطة وعجزها عن الدفاع عنها، الأمر الذي دفعها إلى الفرار من الوطن (صبرينة طيب، آليات السرد في الرواية النسوية الجزائرية، 102)، والعيش في بلدان أخرى، لتتجرع مرارة الغربة وهجر الوطن.

وبالنسبة لـ"نبيلة بلعدي"، فإنها أفاضت في الحديث عن أنواع العنف ومظاهره، وغاصت في أعماق التيارات المتطرفة، فوصفت الجماعات الدينية بالإرهاب؛ وقد اتخذت هذه الجماعات من تأويلها الخاطيء لنصوص التشريع الإسلامي ذريعة لها للوصول إلى كرسي السلطة وحدودها؛ ولو على رقاب الأبرياء، والصاق تهمة العنف والقوة بالإسلام (نبيلة بلعدي، تحليلات مظاهر العنف في الرواية الجزائرية المعاصرة، 95)، بعد أن ارتدت هذه الجماعات أردية الدين، وتزينت بجماليته لتحقيق مآربها.

ولم يفت الباحثة الإشارة إلى الصفات البرانية/الخارجية لأفراد الجماعة الدينية، وكذا أفعالهم المخالفة لسلوكهم الذي يتخذ الإسلام نبراسا لحيواتهم، فكشفت أفعالهم الإجرامية - كالقتل والتفجير والاغتصاب - حقيقة خبيثتهم، وأرجعت الباحثة - كما الروائي بشير مفتي - أسباب الفتنة إلى الديمقراطية وظهور بوارد الصراع بين المتدينين (نبيلة بلعدي، تحليلات مظاهر العنف في الرواية الجزائرية المعاصرة، 97) من جانب، وبينهم وبين السلطة من جانب آخر.

وفي المقابل، ينبري بشير بويجرة محمد لدراسة أحداث العنف بشتى أشكاله وتعدد صوره، في كتابه "الأنا، الآخر" الذي يتناول فيه مجموعة من النصوص الشعرية والنثرية (روايات) بالدراسة والتحليل والتشريح، ويظهر مجموع هذه الأحداث بصورة أو بأخرى، وتجلياتها المتنوعة والمتعددة. يثير بشير بويجرة محمد مسألة العنف منذ بروزها في حياة الفرد، ودخولها في تكوين شخصية الإنسان من خلال تسليط هذا الأخير القوة على غيره، وقد تتعدى لتشمل المجتمع كله، ويتجلى العنف كظاهرة في حياتنا اليومية، من حيث الرفض وكذا العدوان، لتظهر العلاقة القائمة بين النفسي والاجتماعي، فالعنف "شديد الارتباط بفعل الإنسان الفردي والجماعي، فالعنف في صورته الماثلة كضغط جسدي أو معنوي، أو كرفض اجتماعي أو عدوان نفسي قد يعتبر عنصراً محكماً لكثير من التحولات والانتقالات سواء الفردية أو الجماعية" (حكيم أومقران، د ت، 264)، والتي ستسهم، حتماً، مع غيرها من الأمور عن تحول مساراتها وتحدث شرخاً بين القول (الفكر)، والفعل (الممارسة).

وفي ظل اغتيال كثير من القيم الأخلاقية والتداول على الثوابت، يحدث الشرخ بين الإنسان ومحمولاته الفكرية والدينية، وتفرغ القضايا من محتواها، "وبين ما تعانيه الأم/المرأة من عنف وظلم وغبن وقهر من أب يفتخر بحفظه القرآن وعلمه بالسنة وعلى اعتزاز كبير بانتمائه للحضارة التي أنجبت ابن خلدون وطارق" (بشير بويجرة محمد، د ت، 111)، يتم التركيز على المظاهر ومنحها أهمية كبيرة على حساب الفعل والممارسة، ويظل العنف وسيلة ومنهج حياة، ويمنح بذلك الحدث الروائي لـ "معركة الزقاق" مرجعيتها الواقعية وسندها التاريخي وقوة تأثيرها الموضوعية.

ويلامس بشير بويجرة بعد ذلك جرح الراهن المتختم برائحة البارود وبصرخات الموت الجماعي، وما يحمله النص "فتاوى زمن الموت" الذي يسلط الضوء على عمق الحدث الرهيب الذي أغرق الجزائر في حمام دم دائم الجريان، بكل ما تحمله هذه الكلمة من دلالة، ولذلك يؤكد الباحث بقوله إن: "شعار المتن... فتاوى، زمن، الموت... يحيلنا منذ الوهلة الأولى على كينونة يهيمن عليها الغموض والخوف والقلق" (بشير بويجرة محمد، د ت، 123)، وتصدم الرواية أفق المتلقي بدءاً من عتبتها النصية الأولى "العنوان" إلى منتهى النص.

ويضيء بشير بويجرة محمد بامتياز مشاهد القتل الجماعي، فنشاهد بوساطة ريشته الإبداعية عملية نَشْش وتمزيق الجسد -الجزائري على مرأى ومسمع العالم أجمع- ونحن نغرق في مستنقع الدم ونتنفس رائحة ودخان البارود، ونحيا الحي الوجوه من هول ما أصبنا و"تتقاطع الأحداث وتشابك حتى تصل إلى القتل (...). وإلى وضع قبلة أمام مدرسة الحي أودت بحياة "بوراسين" وبحياة العديد من الأطفال" (محمد بشير بويجرة، د ت، 125) الأبرياء، وهذا ما أدانه الجميع، إن هذه الأحداث الأليمة تضفي على الرواية "جواً كابوسياً (...). و إحياء بضائع الإنسان أمام ما يحدث، وأن حالة من التخبط تسود هذا العالم، بخاصة أن الأمور بدأت تهاجم الإنسان وهو يجلس في بيته" (أحمد جاسم الحسين، 2001، 281)؛ إذ إن ظاهرة العنف طالت الأخضر واليابس ولم تدع حياً ولا ميتاً إلا وأفزعته.

لا يمكن إدراج الأحداث المأساوية التي مست الوطن -الجزائر- في خانة النسيان ودفاته وطبها، ولا غرو أن الأطراف التي اتفقت على ذبح الجزائر -الحبيبة- كانت كثيرة، لكنها بقيت مجهولة الاسم والعنوان، مكشوفة التوجه والانتماء وتوضيحاً لذلك، يقول محمد بلقاسم خمار: "من المعلوم أن سنين الدماء والدمار والخراب التي مرت بها الجزائر، لم تكن معاوها الجهنمية الوحشية بأيدي الإسلاميين المتطرفين فقط، بل كانت أيضاً بمشاركة كل الغلاة المتعصبين من أصحاب الآفاق الضيقة والأفكار العلمانية والإيديولوجية المستوردة، ومن عبيد عشاق الاستعمار القديم وعصابات المافيات المحلية والدولية (...). ومن حملة الثأر والأحقاد الماضية من أورييين وصهانينة وعملاء، ومن طرف حتى بعض الأحزاب المحلية المؤسسة على التبعية والخذاع والهدم" (عبد الرحمان عمار، 2003، 69).

وقد وعى كثير من الروائيين والباحثين والنقاد -الموضوعيين- هذه الحقيقة فنسجوا على منوالها دراساتهم ومقارباتهم، ولعل بشير بويجرة محمد واحد من هؤلاء الذين وعوا حقيقة الإرهاب ومحاولاته الفكرية والرؤيوية، وعلاقاته بالآخر الذي لن تحف له عين حتى تخر الجزائر راکعة بين يديه، وهيئات هيئات أن يحدث ذلك، ويذهب الباحث بشير بويجرة إلى استنتاج مفاده "بأن ما وقع في الحي من أحداث قتل وصراع أسسها "الآخر" وساهم في بلورتها بداية من رحيل الجماعات الأوروبية بعد الاستقلال" (بشير بويجرة محمد، د ت، 130)، وهكذا تتضح لنا قناعة الباحث الراسخة بـ "نظرية المؤامرة" وإيمانه بها بنسبة كبيرة.

قد لا يأخذ بهذا الرأي والتحليل كثير من الناس، فيختلفون معه، ولعلمهم محقون في ذلك، وأن نرمي التهمة على "الآخر" ونحاول إلصاقها به، فهذا عين الحيف والإجحاف أيضاً، لكن لو لم يجد هذا "الآخر" من ينفذ خططه الإستراتيجية ومكائده الشيطانية لما تمكن من ذلك! ولكن تضافر عناصر كثيرة، وتشابك خلايا عديدة أسهمت وسائلها وأدواتها -بوعي أو بدون وعي- في إدخال الجزائر في دوامة العنف والإرهاب.

وإذا كان القمع الديني لا يختلف عن القمع الفكري، ولئن كان الاضطهاد أو القمع الديني يتخذ من عملية التأويل مرتكزاً، يدّعي العصمة لنفسه، واحتكاره للمعرفة الدينية التي لا يمكن أن يشاركه فيها غيره، فإن "تركيبة" فتاوى" (...) تحمل جملة من التأويلات تزيحها عن المقاصد الفقهية والمرجعيات الدينية إلى فضاءات وإمكانات تجعل المتن كل مفتوحاً على دلالات ثرية ومتعددة" (بشير بويجرة محمد، د ت، 124)، وموضوعات الموت والقمع والعنف كثيرة الحضور، و"لا فارق جذرياً بين القمع والإرهاب في ذلك السياق، فالقمع قهر وإذلال وإجبار، والإرهاب تخويف وترويع وتفرغ، وكلاهما يلتقي في دلالة ممارسة العنف" (جابر عصفور، 13، 2003)، ولعل هذه القراءة واحدة من جملة الاحتمالات الدلالية التي يزيكها المتن ضمن إستراتيجية القراءة.

ولعل بشير بويجرة محمد حين أشار إلى "نظرية المؤامرة" وما حل بالجزائر لم يخف تضافر باقي العناصر الداخلية في نسيج هذه المحنة وحبكها، فيقول: "أما عندما يتماهى كل ذلك مع هذه اللقطة القاتلة: "أيقدر الأخ أن يفعل بأخيه كل هذا مهما كانت الأعذار؟ وإلى متى ينتهي هذا النزيف؟ متى يستريح هذا الوطن من غيلان الأحقاد؟ متى تلبسين فستان فرحك أيتها البيضاء"، فإن ذلك قد يؤدي بالذات القارئة إلى أتمدجة ذلك العبث في "صلاح الدين" قائد الجماعات الإرهابية وفي "أحمد الملمد" قائد السماسرة والمفسدين وفي "سي سليمان" (بشير بويجرة محمد، د ت، 144)، لكن الذي حدث أن القتل أودى بحياة المفكرين والمثقفين والمبدعين، كأن إرهابهم وقتلهم تأديباً لغيرهم، لأنهم "قاوموا الإرهاب بالكلمات التي كانت بديلاً عن الموت" (جابر عصفور، 12، 2003)؛ إذ بحب الجزائر حارب المثقفون صانعي موت الجزائر واغتيالها، وبالكلمة وقفوا في وجه القتل والقنص والدمار.

و"تعكس حركة إنشغال الحبر والدم لحظة صياغة النص، بل وتلمح تعثر الحروف قبل تدافعها، لتعكس محنة وعشية الكلمة"(محمد أحمد المسعودي، 576، 1425) في راهن متخيم برائحة الموت والبارود، وبصراخ الضحايا الذي يصم الآذان، وقد زان بشير بويجرة محمد كل هذه المعاني والدلالات بمقارنته التي اتخذت من الموضوعية والحيادية وقوة الطرح وعمقه ميسماً بارزاً لها، فأضاعت الكثير من الزوايا المعتمدة والجوانب المبهمة المظلمة.

خاتمة:

يلاحظ مما سبق، أن الخطابات الروائية المبدعة -في السنوات العشر الأخيرة من القرن الماضي- من خلال النقد الجزائري، طغت عليها تيمة "الموت/العنف"، ولذلك اتجه الكثير من النقاد إلى اسكتناه سر الموت، وفهم التقنيات والآليات الفكرية والدوافع النفسية والتجربة الذاتية والجماعية التي توثق ضمن مناخاتها المسكونة بالابتكار لتراجيديا الإنسان وفجيئته، وتقرخ لراهننا المعيش المتخيم بثقافة الفجيعة والموت.

إن إستراتيجية التطور أو التحول على مستوى النصوص الروائية الجزائرية تتطلب تجربة حيزها الرؤيا، تغيا إحداث تغيير لنظام الأشياء ونظام علاقاتها، ونتيجة للتعلاقات المتشابكة بين مشكلات النص الروائي غدت بنية النص من منظور النقد الجزائري فضاء متعدد الدلالات.

المراجع

الكتب:

- 1- أحمد جاسم الحسين، 2001، القصة السورية ونقدها في القرن العشرين، دمشق، سورية، منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- 2- أحمد محمد عبد الخالق، مارس 1987، قلق الموت، عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- 3- بشير بويجيرة محمد، د ت، بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري (1970-1985)، ج 2، وهران، الجزائر، منشورات دار الأديب.
- 4- بشير بويجيرة محمد، د ت، الأنا، الآخر ورهانات الهوية في المنظومة الأدبية الجزائرية، وهران، الجزائر، منشورات دار الأديب.
- 5- جابر عصفور، 2003، مواجهة الإرهاب قراءات في الأدب المعاصر، مكتبة الأسرة، القاهرة، مصر، الهيئة العامة للكتاب.
- 6- جمانة طه، 2004، المرأة العربية في منظور الدين والواقع (دراسة مقارنة)، دمشق، سورية، منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- 7- حكيم أومقران، د ت، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية (الطاهر وطار)، وهران، الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع.
- 8- سليمان حسين، 1999، مضمرات النص والخطاب (دراسة)، دمشق، سورية، منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- 9- السيد إبراهيم، 1998، نظرية الرواية دراسة مناهج النقد الأدبي، ط1، القاهرة، مصر، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.
- 10- عبد الرحمان عمار، 2003، قضية الإرهاب بين الحق والباطل (دراسة مقارنة)، دمشق، سورية، منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- 11- عبد القادر بن سالم، 2001، مكونات السرد في النص القصصي الجديد، دمشق، سورية، منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- 12- عبد الله إبراهيم، 1990، المتخيل السردى مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة، ط1، الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي.
- 13- محمد الباردي، 2002، الرواية العربية والحدأة، ج1، ط2، اللاذقية، سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع.
- 14- مخلوف عامر، 2000، الرواية والتحويلات في الجزائر، دمشق، سورية، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

المجلات:

- 1- أحلام العلمي، 2019. أشكال العنف وتمثالاته في الرواية الجزائرية المعاصرة، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد 30 العدد 3، ديسمبر.
- 2- عبد الحق ميفراي، 2008. ملف الرواية الجزائرية: الذات، التاريخ والحلم. مجلة الكلمة الإلكترونية، العدد 13، يناير.
- 3- محمد أحمد المسعودي، 1425. الخطاب ودوره في تشكيل الشخصية الروائية، مجلة علامات، جدة، ج 53، م 14، رجب، ص576.
- 4- ميكال دوفرين، 2008. الأثر الفني إنشاءً وإنجازاً، ترجمة وتعريب: حبيب مونسي، مجلة التبيين، الجزائر، مطبعة الجاحظية، العدد 29، ص49.
- 5- نبيلة بلعدي، 2019. تجليات مظاهر العنف في الرواية الجزائرية المعاصرة رواية أشباح المدينة المقتولة لبشير مفتي نموذجاً، مجلة التعليمية، المجلد 6 العدد 2، جوان.

الرسائل والأطروحات:

- 1- سامية داودي، صوت المرأة في روايات إبراهيم سعدي، أطروحة دكتوراه (مخطوط)، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر.
- 2- صبرينة الطيب، 2013-2014. آليات السرد في الرواية النسوية الجزائرية دراسة بنيوية تحليلية، مذكرة ماجستير (مخطوط)، كلية اللغات والآداب، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر.